## خصـــــــائص الشعر الجاهلي :

١.**الواقعية والوضوح** : لعل ابرز هذه الواقعية أن الشعر الجاهلي استمد مادته من الحياة ، فصور البيئة أصدق تصوير، وهو تصوير واضح جلي لا خفاء فيه ، بسيط لا غلة فيه ، بعيد عن المبالغة والتعقيد ، فمعاني الشعر واضحة بسيطة تلائم الفطرة وتنسجم وطبيعة المجتمع لبدوي،ولا شك أن البساطة ولوضوح أثران من آثار البيئة وصفاء الذهن واعتدال مزاج ، وهما يدلان على عقلية هادئة مستقرة لا اضطراب فيها ولا قلق ، فلا غموض لا نفلسف ، ولا أريد هنا بالبساطة السذاجة والبدائية ــ كما قد يُظن ــ فالشعر الجاهلي من حيث معانية وأخليته ولغته ، يدل على رقي عقلي وصفاء ذهني وعناية فنية ومهارة في صناعة الشعر وصياغة معانية وصوره ، والبساطة لا تناقض إجالة النظر وصقل الفكرة وشحذ الذهن وغير ذلك من الوسائل التي يجود بها الشعر ، وليس الفن كله معقداً مركب ، بل منه البسيط الواضح الذي يلائم الفطرة والطبيعة الصحراوية ، ومنه المركّب المعقد المغرق في الخيال الذي هو نتاج الحضارة والمدنية ، والبيئة البدوية مكشوفة مضيئة ، فضاؤها رحب يمتد فيه البصر ، والشمس ساطعة وحياة الشعراء سهلة بسيطة ، فلم تكن - لأجل ذلك - تراود خيالهم الغاز معمية أو هواجس خفية ، فكان من الطبيعي أن يستمد الشعراء صورهم وأخيلتهم من الواقع الواضح ، لأنهم لا يتخيلون من وراء حجاب ، فجاءت معانيهم واضحة بسيطة لأنها عالجت حياة بسيطة واضحة بعيدة عن الحضارة ــ إلا قليلاً ــ وما يتبع الحضارة من أدب يميل الى الإغراب والمبالغة.

**ومن مظاهر هــذه الواقعية :**

١.الصدق في التعبير وفي نقل الصور والمشاهد نقلاً يكاد يكون أميناً ، وبخاصة حين يــذكرون المواضع ويناجون الديار ، وحين يفخرون أو يرثون فلا يبالغون في الخيال ولا يسرفون في التصور ، وذلك لأنهم يتحدثون عن أحوال رأوها وتجارب مارسوها و**ذ**كريات أحسوا بها .

٢.ويتمثل الصدق في انفعالات الشعراء وعواطفهم وفي تسجيل الوقائع **والـ**ذكريات وتصوير النصر بصورته الحقيقية ، من غير غلو ولا مبالغة ، والإقرار بالهزيمة والنكوص إن دارت الدائرة على قومهم . وليس أصدق إقراراً بقوة الخصم ، واعترافاً بالفرار من قول الحارث بن وعلة الجرمي في يوم الكلاب الثاني بين جرم وتميم :

فدىً لكما رجلَيّ أمي وخالتي ... غداة الكلاب إذ تحز الدوابرُ
نجوتٌ نجاءً لم يرَالناس مثله ... كأني عقابٌ عند تيمن كاسرُ

وإذا كان هذا يعني صدق الوقائع ، فأن هناك ضرباً أخر من الصدق يتمثل في التعبير عند الصور المنتزعة من البيئة ونقلها بصدق كما شهدها الشاعر وألفها من ذلك قول لبيد واصفاً حاله بعد موت أعمامه وأبنائهم :

أصبحتُ أمشي بعدَ سلمى بن مالكٍ ... وبعد أبي قيسٍ وعروة كالأجـــــب
يضــجّ **اذا** ظِل الغراب دنا لـــــه ... حذاراً على باقي السناسن والعصبْ

فهو يعرض مشهداً رآه وتأثر به ، مشهد الجمل الذي قطع سنامه أيام القحط والجدب ، فهو يرتعد خوفاً وألماً كلما أحس بغراب يدنو منه أو يتوهم دنوه ، لما يفعله من النقر ببقايا سنامه وأعصابه وفقار ظهره ، فهذه صورة مؤثرة ، لأنها صادقة انتزعها من الواقع المشاهد ، وقد استطاع الشاعر في هذين البيتين أن يحقق الصدق الفني والصدق الواقعي على السواء .غير أنه شذّت بعض الأبيات ــ وهي قليلة معدودة ــ وقف عليها القدماء وأنكروا ما فيها من مبالغة ومجاوزة المعقول ، حتى أنهم وصفوا قائلها بالكذب ، من ذلك قول المهلهل بن ربيعة :

فلولا الريحُ أسمع أهلَ حَجْرٍ ..... صليلُ البيضِ تقرعُ بالذكورِ

والأمر الأخر الذي هو مظهر من مظاهر الواقعية ، هو الإيجاز.

ولاشك أن طبيعة الحياة الجاهلية وما فيها من نقله سريعة وحركة دانية غير مستقرة ولا تروية ،ومناخ الصحراء القاسي الشديد في حره وقره ، كل ذلك جعلهم لا يُطيلون ولا يتأملون يقفون عند وقفة وسرعان مايتركونه الى غيره ، أما الوقوف الطويل والتفصيل وتشقيق المعنى على وجوه ، كل ذلك لا يلائم طبيعة حياتهم ومزاجهم وعقليتهم .

ولعل أقرب صور الإيجاز تتمثل في التشبيه إذ يقرب المعاني البعيدة ، ويركزها في صورة قريبة محسوسة ، ولذلك كان التشبيه في الشعر الجاهلي أكثر الوسائل البيانية انتشاراً ، أما الاستعارة فعمل مركب فيه تعقيد فهي قليلة وأكثر منها الكناية ، والكناية فيها تقصير العبارة وإيجازها. فهي تحمل المعاني الواسعة المتخيلة في عبارات قليلة فيها طرافة وجمال .

والمظهر الأخر من مظاهر الواقعية ، أن صور الشعر الجاهلي صور حسية فيها تجسيم وتشخيص وهذا أمر طبيعي لان صور الشاعر مستمدة من بيئته ومرتبطة بالبادية ، واذا قلنا أن الصور مادية كل الصور وكل المعاني ــ فلا نعدم أن نجد عناية بوصف الأحوال النفسية ـ بل أن صورهم في جملتها على هذه الشاكلة. وهذه الظاهرة الحسية لا تفارق الصورة حتى في تعبيرها عن أمور معنوية غير ملموسة ، كالحلم والكرم والوفاء والشرف ، فالشاعر الجاهلي يميل الى تصوير المعنويات والتعبير عنها مجسمة في ماديات محسوسة ، أو متعلقة بأشخاص بأعيانهم ، يتحدث لبيد عن حِلم قومه فيقول :

ولهم حلومٌ كالجبال وسادةٌ ..... نَجُبٌ وفرعٌ ماجدٌ وأرومُ

فقد أخبر عن سعة حلمهم بصورة مادية ، وهي صورة الجبال بشموخها وثباتها وخلودها ويقرن طرفة بين ظلم قومه وبين وقع السيف فيقول :

وظلمُ ذوي القربى أشد مفاضةً ..... على المرء من وقع الحسام المهندِ

وهذه النزعة في تجسيم المعاني وتشخيصها والتعبير عنها بصور مادية حسية ، كان لها جرائرها على الشعر الجاهلي ولها فوائدها أيضاً ، فمن جزائها أنها حددت الخيال والتصور ، وربطت الذهن بمشخصات مادية ، فلم تُتح للشاعر أن ينطلق في تصوير المعنويات ، كالحب والوفاء والسماحة والمروءة وغيرها ، تصويراً شاملاً عاماً ، بحيث يعالج الفكرة نفسها غير مرتبطة بمشخصات أو صور في بيئة محددة ، ولم تُتح للشاعر أيضاً أن يتعمق في وصف الخواطر والأفكار أو يحلل العواطف والاحساسات ،ومن هنا جاء وصفهم للمرأة وصفاً حسياً جسدياً ، فلم يتغلغلوا في أغوار النفس ويتعرفوا على خفاياها ولم يصفوا عواطف المرأة المحبوبة وأشواقها ــ إلا نادراً ــ بل وصفوها وصفاً خارجياً ، كما هو واضح في تصوير امرئ القيس لمحبوبته في معلقته :

مهفهفة بيضاء غير مفاضةٍ ..... ترائبها مصقولة كالسجنجلِ

إلى أخر الأبيات.

ومن عيوب هذه النزعة المادية الحسية ، فأنها جعلت الصور تتكرر، لأن الظواهر الحسية متعلقة بالصحراء . ومشاهد الصحراء محدودة متشابهة ، أما فوائد هذه النزعة المادية الحسية ، فانها جعلت الشاعر يدقق في موضوعاته ويفصل في أوصافها ويولد في معانيها فيصب المعنى الواحد في صور مختلفة ونماذج جديدة ، إمعاناً منه في الإيضاح وزيادة في استقصاء جوانب الموصوف واستيفاء أجزائه.

**٢.التصـــــــوير:** يكثر التصوير في الشعر الجاهلي كثرة واضحة ، وبخاصة في الوصف ، إذ يرسم الشاعر مناظر ومشاهد مكتملة الجوانب ، فهو يلم بالصورة الماماً ، ثم يدفق في أجزائها ، ويحصر أطرافها ، ويستقصي جوانبها ،وهذا ـ لاشك ـ دليل التمكن في الفن والدقة في التعبير وخصب الخيال فالشاعر الجاهلي يرسم لوحات كاملة يُعني بكل تفاصيلها وأجزائها . وخير مثال على ذلك "لوحة الفرس" في معلقة أمرئ القيس.

فالشمول في الوصف والتدقيق في الصورة ةالعناية بالجزئيات والتفاصيل ، كل ذلك دليل عناية الشاعر ، لتأتي صورة كاملة معبرة وافية ، فيها تحبير وتدقيق ، وهذه أبرز صفات الصورة عند فحول الشعراء ومجيديهم .

وقد عرفت الصور الجاهلية في أكثرها أنها تصوير لهيئة الموصوف ، وصف لشكله الخارجي وهذا الوصف حسي مادي فيه تجسيم وتشخيص ، وفيه جلاء للصورة وتوضيح لجوانبها وقد اقتضى ذلك عناية بالأجزاء والتفاصيل ، واهتماماً كثيراً بالتشبيه ، وعرض صور كثيرة للمشبه به بحيث يدعو ذلك إلى الاستطراد والخروج عن الأصل . وجاءت أوصاف الشعراء معنية بمظهرها الخارجي وعظم هيكلها ، فطرفة حين وصف ناقته صورها دمية واضحو الأعضاء ، لم ينسَ جزءً ولا عضواً ، ولم يغادر عصباً ولا عرقا ، الا وصفه ووضحه ، فهو رسام بارع ينقل صورة ناقته بأعضائها وقسماتها الجسمية ، كما يتضح ذلك في معلقته.إلا أن وصف طرفة وصف لدمية صماء لا حياة فيها ولا حركة ومثل هذا الوصف عند الجاهليين كثير ، يتناول هيئة الموصوف وشكله الخارجي . ولكن بعض الشعراء وجهوا غايتهم الى وصف الحالة ـــ حالة الموصوف ـــ سواء أكان حيواناً أم انساناً ، وصفوه وصفاً داخلياُ صوروا فيه الحياة والحركة ، وتحدثوا عن نزعاته النفسية والعاطفية من حب وكره وخوف وضعف وجرأة وإقدام ، صوروا نشاطه ومرحه ، حركاته وسكناته زهوه وخيلاءه ، وحتى أفكاره في بعض الأحايين .

وعماد الصور في الشعر الجاهلي"التشبيه" ومجال التشبيه انه يعرض صورتين يربطهما التماثل ، ويزداد جمال التشبيه اذا كانت الصورتان نادرتين ، يتطلب استحضارهما خيال بارع وذهن خصيب وهذه الصور، في جملتها بسيطة غير مركبة ، سهلة غير معقدة ، ذلك لأنها اتخذت التشبيه وسيلة ، والمقارنة بين صورتين سبيلا.

وهناك صور أخرى أكثر دقة وأبعد خيالاً والصق بالفن والشاعرية ، تلك الصور التي عمادها الاستعارة والكناية ، وإذا كان التشبيه يمثل طور البداية وهو أول مراحل التصوير ، فإن الاستعارة تمثل مرحلة النضج والدقة الفنية وقوة التصور ، والخيال البعيد ، ولذلك فلا تتهيأ الاستعارة الجيدة لكل الشعراء . ويقال إن أول استعارة جاءت في الشعر الجاهلي قول امرئ ألقيس في "لوحـــة الليــل"

وليلٍ كموج البحر ... الأبيات.

والصور التي تعتمد الاستعارة أسلوباً تدل على رقة في الإحساس وشعور بالجمال والحياة ويكفي أن ننظر في هذه الصور لنجد مدى إحساس الجاهليين بالجمال وقوة خيالهم وخصب قرائحهم ، وهي صور تلائم الفطرة السليمة والنفس الصافية ، يقول تأبط شراً واصفاً قوة صاحبه :

إذا هزه في عظْمِ قُرنِ تهللتْ ..... نواجِذُ أفواهِ المنايا الضواحِكِ

ويقول أوس بن حجر في وصف الحرب :

وإني امرؤ أعددتُ للحرب بعدما .....رأيتُ لها ناباً من الشر أعصلا

كما يقول طفيل الغنوي في وصف ناقته :

وجعلتُ كوري فوق ناجيةٍ ..... يقتاتُ شحمَ سنامِها الرحْلُ

وكما عبروا عن الصور الجميلة بالاستعارة ، فقد عبروا عنها بالكناية ، وهي أسلوبك من التعبير يعتمد على إيجاز العبارة أو إدماج أجزائها ، وإجادة التعبير بالكناية تدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة دالة موحية ، فيها ضرب من الجمال لا يتأتى إظهاره بدونها ، يقول النابغة الذبياني في رفاهية الغساسنة وعفتهم :

رقاقُ النعال طيّبٌ حُجُراتُهم..... يحيون بالريحان يومَ السباسبِ

وهكذا نجد الشعراء الجاهليين لم يتركوا جانباً من جوانب التعبير الفني والتصوير البديع إلا طرقوه وأفادوا منه ، سواء كان ذلك باستعمالهم وسائل التحسين البيانية المعنوية ، أو المحسنات البديعية اللفظية وكلها تدعم الصورة وترفدها وتملأ جوانبها حسناً وجمالاً.

**٣.الطابـــــع البـدوي:** الشعر الجاهلي مرآة انعكست فيها كل مظاهر الحياة الحياة العربية ، فقد مثل البيئة خير تمثيل ، فتناول كل جانب من جوانب البادية ، فتحدث عنه بتفصيل ، صور ما فيها من جبال ووهاد وطرق ممتدة ومرابع خضر، ونبات زاهٍ ، ووصف الآثار والدمن ـ كما وصف السحب والأمطار والسيول ، رسم مشاهد كثيرة لحيوانها وقص لكل حيوان قصة ، وصور حال هذه الحيوانات في طردها وقتالها ، في أمنها وفي خوفها ، وأستعار منها تشبيهاته وصوره ، تحدث عن المنازل والديار ــ كما تحدث عن ارتحال أهلها ووصف قوافلهم وهوادج نسائهم ، وتابعها في سيرها فرسهم مخططاً لرحلتها مبيناً الموضوع التي تنزل فيها ، والأماكن التي تمر بها ، ولم ينسَ أن يصف ما خلفه الظاعنون من الحجارة والنؤي والأثافي .

ولم يغادر الشعر جانباً من جوانب الحياة البدوية إلا تحدث عنه وسجله وصوره ، ولذلك نجد فيه صورة صادقة للعصر ، في الحرب والسلم ، في مثله العليا وعاداته وطبيعة أهله ...

ولا شك أن هذا الأثر البدوي الواضح الذي ترك وسمه على شعر الشعراء له جرائره على الشعر الجاهلي ، ذلك انه حدد أفق الشعراء في أطار البيئة الذي لا يتجدد ، فأضعف خيالهم وتشابهت صورهم ، وظهر من جراء ذلك : التكرار في الصور والمعاني ، سواء في ذلك المعاني المتكررة عند الشعراء ، أم عند الشاعر الواحد ، ترى ذلك واضحاً في صور الأطلال وتشبيهها بالخط الدارس ، فقد جاءت هذه الصورة عند كثير من شعراء الجاهلية فامرؤ القيس يقول :

لمن طللُ أبصرتُهُ فشجاني ..... كخطِ زبورٍ في عسيب يماني

وتناول حاتم الطائي هذه الصورة فقال :

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهدما ..... كخطِك في رِقٍّ كتاباً منَمْنما

وأخذها أبو ذؤيب الهذلي فقال :
عرفتُ الديارَ كرسمِ الكتا ..... بِ يزُبرهُ الكاتبُ الحميري

فالصورة نفسها مكررة عند هؤلاء الشعراء وعند غيرهم ، فضلاً عن تكرارها عند الشاعر الواحد نفسه ، وترى التكرار أيضاً في صورة الديار الدارسة وتشبيهها بالوشم ، من ذلك قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :
ديارٌ لها بالرقمتين كأنها ..... مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ معصمِ

وقول طرفة في معلقته :
لخولة أطلالٌ ببرقة ثمهَدِ..... تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

ومثل هذا التكرار في المعاني والصور نجده في وصفهم للبرق والسحاب والمطر، والأمثلة على هذا التكرار والتشابه كثيرة ، وليس مرد ذلك الى السرقة ــ كما قد يُظن ــ ولكن مرجعه الى تأثير البيئة المحدودة المشاهد المتشابهة الصور ، وأليها يُعزى ضعف الخيال . ولم يكن أثر البادية ليقتصر على الصور المستمدة من البيئة والممثلة لما في حياتهم من أحداث حياتهم وأدوات وحيوان ، بل تعدى ذلك الى اللغة نفسها واستعمالاتها ، فقد كانت مرتبطة بالبيئة الجاهلية ، فتعابير الشعراء خاصة وصورهم وأمثالهم كان مستمداً من الإبل وما يتصل بها ، والإبل هي عماد الحياة في البادية ، فالناس قد قالوا وما زالوا يقولون للرجل اذا عجز عن الكلام :"اعتقل لسانه" وإن أحسن في أمرٍ مدحه الناس فقالوا : "لله دره " ،وإن أفسد بينهم قالوا : "ألقحَ الشر بينهم" وإن احتال للشيء عند غيره وداهنه قالوا:"هو يفتل له بين الذروة والغارب" وإن أهمل الشيء وتركه وشأنه قالوا :
"القى حبله على غاربه" ونجد تعابير أخرى مرتبطة بحياة الناقة أو الجمل في قولهم :
"وطئه بمنسمه " وضرسه بأنيابه ، وألقى عليه بجرانه ، وتَسنم الأمر ، وأناخ عليه بكلكله ، وأخذ بزمامه ، وإذا اعتزلوا أمراً قالوا : "لا ناقة لي فيه ولا جمل "وهكذا .